الأدب الإسلامي وأزمة القيم المعاصرة

الأستاذة أمال لواتي

جامعة الأمير عبد القادر-قسنطينة

عرضت مسألة الأدب الإسلامي في النقد العربي المعاصر من أجل تحديد المعطيات الفكرية والفنية الكفيلة بإيجاد أدب يحمل هويته الحقيقية -أي أدب عربي إسلامي- باختيار نهج الأصالة للتعبير عن شخصية الأمة ومثلها وقيمها وواقعها، وصهر المعطيات الوافدة إليها بتصورها وآفاقها المتميزة، ولمواجهة حركة التغريب في الفكر والأدب والحياة بعد سيطرة النمط الفكري الغربي في العالم الإسلامي من خلال تشويه عقيدته وتغيير ثقافته وفنونه وتطبيعه بنزعة فصل الدين عن الحياة، وبالتالي فصل الدين عن الأدب، فابتكرت الشعارات المصطلحات التي تهدم ثقة المسلمين بكتابهم وسنتهم، وتراثهم وماضيهم، وتسللت إلى حياتهم بدعوى مجاراة روح العصر، من خلال الاعتزاز بالحضارة الغربية والالتزام بتجاربها وأفكارها، واعتناق آدابها وتياراتها الفلسفية والأدبية، مما نتج عن ذلك انعكاس أزمة المفاهيم والقيم الغربية المعاصرة على أدبنا[1]، واضطراب أنماطه الفنية وآلياته النقدية بعد أن انجرف معظم الأدباء والشعراء نحو ترسم آداب الغرب ومحاكاتها دون أن تحفزهم إلى هذه المحاكاة دوافع قهرية كما كان في الغرب، ولكن حب التجديد والتقليد للأدب الغربي فحسب[2].

وإن استفادوا خبرة فنية من مذاهبه وأجناسه الأدبية، فإنهم فقدوا شخصيتهم المميزة، ولم يعودوا يمثلون طابعا مميزا محدود السمات في الأدب العالمي لاستعارتهم للآفاق، والتجارب والمثل من بيئة مغايرة في الهدف والتصور، فكان من أهم دواعي تأصيل الخطاب الأدبي الإسلامي، هو محاولة حل أزمة القيم المعاصرة التي فرضتها طبيعة الاحتكاك بآداب

---

(1)-انظر: محمد زكي العشماوي: الأدب وقيم الحياة المعاصرة، دار النهضة العربية، بيروت، 1980، ص21.

(2)-عمر الدسوقي: في الأدب الحديث، دار الفكر، ط8، 1973، ج1، ص8-9.

الغرب... والكشف عن عناصر التغير للأسس النفسية والشعورية والفلسفية، التي صدرت عنها تلك القيم والتي أسفرت عن صراع حقيقي بين قيم أصيلة وأخرى دخيلة يتحكم فيهما اختلاف في التطور السياسي والتاريخي والاجتماعي والفكري.

1-التحول إلى الخطاب الديني:

كثير من الأدباء نفروا من الأدب الديني كما نفروا من الدين نفسه، على أنه رجعية وجمود، وتبنوا إيديولوجيات أخرى بعيدة عن الخطاب العقلي المنطقي واعتنقوا عدة نزعات أخطرها نزعة الإلحادية[1]، على الرغم من أن العقيدة هي المحضن الأول للإنسان، فهو «مرتبط دائما بعقيدة معينة وحاجته إليها فطرية تلازمه في كل زمان ومكان، لأن فيه ميلا غريزيا إلى تبني عقيدة ما»[2]. لكن عقيدة الدين عبرت منذ العهد الأول للإنسان أنها حقيقة عميقة في كيان هذاالوجود مهما كانت صورها وطبيعتها، فكل ما في الوجود مهتد إلى الله، سائر على هداه، ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾[3]، ولهذا كان الاهتداء إلى الله هو أكبر منابع المعرفة، لأن «العقيدة في الله هي أضخم الحقائق في حياة الإنسان، كما هي أضخم الحقائق في كيان الوجود، إنها هي التي تكشف له حقيقته الجوهرية الفذة، هي التي تكشف له عمق نفسه واقتدار طاقاته، هي التي تكشف له عن مهمته الخطيرة في كيان الوجود كله مهمة الخلافة عن الله. وعندئذ تكشف له عن حقيقة صلاته بالله، وصلاته بالكون والحياة وأخيه الإنسان»[4].

وأي فلسفة لا يمكن أن تحمل في ثناياها مما يحمل الدين من مثل وقيم تفصل بين الخير

---

(1)-عبد الباسط بدر: مقدمة لنظرية الأدب الإسلامي، ط1، وجدة، دار المنار، (1405هـ-1985م)، ص22.

(2)-طه: ص50.

(3)-محمد قطب: منهج الفن الإسلامي، ط5، القاهرة، دار الشروق، (1401هـ-1981م)، ص116.

(4)-صلاح قنصوة: نظرية القيمة في الفكر المعاصر، دار الثقافة، القاهرة، 1987م، ص236.

والشر، والحق والباطل والفضيلة والرذيلة، والهدى والضلال. فالدين «هو الأفكار والمشاعر والآمال التي تستعر مشبوبة في صدر المؤمن، لما تحمله من قيم تفوق القيم جميعا. ويقف الإحساس بوجود تلك القيم على قدم المساواة مع إحساس المؤمن بوجوده هو نفسه. فالدين هو الوعي بتلك القيم والغايات، والسعي دوما إلى تدعيمها والتوسع في نشر أثرها»[1]. ولهذا أصبح من الضروري أن تقوي آصرة الدين في هذا العصر الحديث الذي أصبح الإنسان يعيش فيه عدة أزمات أولها أزمة الإيمان التي تكمن وراءها مأساته، بعد أن حاصرته عدة إيديولوجيات أفرغت حياته من البعد الروحي.

والإنسان المسلم في خضم هذا التأزم بحاجة إلى التعبير عن الفكرة الإسلامية في أدبه، بعد أن أفلست كل التصورات والانفتاح على تصور الإسلام الشامل للكون والإنسان والحياة، لأنه «تصور يسعى للتحقق بأكبر قدر من الوفاق والتناغم بين الإنسان والوجود، وخلق إيقاع موحد بين كافة الأطراف التي يحتويها الكون، ويضم جناحيه عليها. التحقق – كذلك- بأكبر قدر من الحضور في قلب الطبيعة والعالم وصولا إلى الله. الحقيقة المطلقة والجمال الكامل»[2].

2-العودة إلى القيم المفقودة:

إن المجتمع الإسلامي في حاجة إلى أدب يوصل الأسباب ما بين قلبه وذوقه، وما بين عقله وروحه، ويعمل على تحصينه عقديا وفكريا والحفاظ على خصوصيته الدينية والحضارية. و«الأديب هو واحد من المدعوين لممارسة المهمة الخطيرة بفنه القادر على التأثير والتحصين، بل إنه مدعو إلى أكثر من هذا، إلى دعوة المجتمعات الإسلامية لاستعادة ممارستها الأصيلة وقيمها المفقودة، وتكاملها الضائع، وتقاليدها الطيبة وإحساسها المتوحد، وصبغتها

(1)-محمد قطب: منهج الفن الإسلامي، ص116.

(2)-صلاح قنصوة: نظرية القيمة في الفكر المعاصر، ص236.

الإيمانية التي أهمتها رياح التشريق والتغريب»[1]. بعد أن ابتعدت عن إطار حركات التغيير الحضاري في الواقع العربي الإسلامي، بكل تقاليده وقيمه وصوره الموروثة، وقد أصبح الأديب يعيش في مناخ معقد وشاذ متأثر برؤيا القرن العشرين في الغرب ويحس في النهاية إحساسا عميقا ببعد المسافة بينه وبينها لاختلاف وجهات النظر :اختلاف درجات التطور الاجتماعي[2]. مما نتج عن ذلك عدم الانفعال بالواقع والحياة، والتقاء المضموم السلبي مع الإبهام الفني جعل الأدب خاليا من الإيحاء والقصد والوضوح، لاعتماده بالخصوص على الأسطورة المغلقة بالرموز الوثنية اليونانية والنصرانية بعد أن اعتبرها النقاد العرب تجربة الإنسان المركزية عبر التاريخ. وسعى إلى تمثلها للتوحد مع الزمن في مساره اللانهائي، وفي هذا السعي نحو الشامل والمطلق تناسي للتاريخية المشروطة بواقع تاريخي[3].

ولهذا لا يمكن للأديب المسلم أن ينعزل عن مشاكل وقضايا مجتمعه، بل يحاول من خلال شعوره الديني إيجاد النماذج الإنسانية القريبة إلى الحق والصدق والواقعية، لأن «العامل الإلهي وحده، هو الذي يستطيع أن ينتصر على العزلة، وأن يجعل الإنسان مدركا للشعور بالألفة والصلة، ومتوخيا غاية جديدة بوجوده»[4].

فالمسؤولية الإيجابية هي المستمدة من التصور الإسلامي العام على الرغم ما يتعاور المجتمع من انحراف وضلال «فالمسؤولية المقدسة في عنق الأديب المسلم، تجعله يهدف أول ما يهدف إلى تحقيق السعادة والتوازن لنفسي لدى الأفراد، باعتدال الموازين بين فئات المجتمع، والانطلاق من موقف إيماني صحيح، والنظر إلى سوءات الحياة الاجتماعية نظرة الطبيب

(1)-عماد الدين خليل: مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، (1407هـ-1987م)، ص176.

(2)-المرجع نفسه، ص178.

(3)-إبراهيم رماني: الغموض في الشعر الحديث، الجزائر، ديوان المطبوعات الجزائرية، ص107.

(4)-نيقولاي برديائف: العزلة والمجتمع، ترجمة: فؤاد كامل، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1960، ص112.

لمريضه، حيث تقتضي هذه العلاقة الحب والفهم، والولوج إلى القلوب لتحقيق الثقة والإيمان والأمل والقناعة الخاصة، ومن ثم يتولد الموقف الإيجابي، الموقف الذي يتحول إلى ممارسة وتغيير للأفضل»[1].

3-الخروج من المأزق الوجودي:

إن التوتر في الأدب هو المعاناة النفسية والانفعالات الوجدانية، وهو «من العوامل الفعالة في نشوء التجربة والرغبة في التعبير، التوتر الذي ينشأ عن الألم ينبثق بدوره عن عدم الانسجام بين الإنسان والعالم»[2].

خلق عدم الانسجام بين الإنسان والعالم نوعا من التوتر السلبي، وطغى الشعور بالتمزق والعبث والسأم فوجدنا ذلك الكم الهائل من القصائد العربية التي تفيض بأحزان الإنسان المتشائم المغترب السأمان، الذي يحس بعبث الحياة وعقم التكرار التافه الرتيب وضياع ذات الإنسان وفرديته في مجتمع مضغوط، لم يعد فيه مجال لفناء الذات الفردية وهمومها أمام الحضارة المادية الآلية الزاحفة بكل أبعادها وبكل ثقلها في عالمنا المعاصر، وبتياراتها الفلسفية المعاصرة التي تغذي نزعات السأم واليأس والعدم والاغتراب، وأصبح عالما يحس فيه الإنسان بوحدته وتفرده ونفيه في هذا الكون، بعد أن رفض العناية الإلهية، وتمرد على كل قيم سابقة تعوق تحقيق وجوده[3].

لكن الإسلام بتنظيمه المعجز للعلاقة بين الإنسان والعالم لم يفض إلى مأساة سوء التفاهم بين الإنسان والعالم والقيم، ولم يقض على توتره أمام ضغوطات وتناقضات يعيشها

---

(1)-نجيب الكيلاني: مدخل إلى الأدب الإسلامي، مطابع الدوحة الحديثة، الدوحة، قطر، ط1، (1407هـ-1987م)، ص117-118.

(2)-عماد الدين خليل: في النقد الإسلامي المعاصر، ط3، بيروت، مؤسسة الرسالة، (1404هـ-1984م)، ص26.

(3)-سعد دعبيس: الشعر العربي المعاصر والفكر الإسلامي، مجلة الأمة، (1403هـ-1983م)، ع27، ص22.

الإنسان المسلم المعاصر «لقد قضى الإسلام على التوتر بشكله البدائي الهدام. ولكنه خلق في أعماق المؤمنين توترا من نوع جديد، عميق، بعيد الأغوار، يعرف هدفه معرفة يقينية، ووضع غايات وأهدافا شتى تثير وجوده، وتبعث التوتر في عصب كيانه»[1].

فعلى الأديب المسلم أن يعمل على تفكيك النفسية الإسلامية المعاصرة وتطهيرها وإعادة تركيبها بطريقة تجعلها ثابتة قوية فعالة، لأن الأدب يخاطب المشاعر والعواطف والنفسيات، وقادر على الترسب إلى أماكن الخوف والهزيمة والظلام وإضاءتها وتطهيرها. وهذا ما يشبه ما قاله "أرسطو" قديما عن التطهير "كاثر سيس"، وهي أن الإنسان إذ شاهد أو قرأ أزمته النفسية، فإنه يتطهر منها ويشفى ويستعيد عافيته واتزانه، ولهذا فتحليل معاناة المسلم وتفكيك عقده وآلامه النفسية لن يعينه على رؤية البعد النهائي لشقائه فحسب، ولكنه قد يعينه كذلك على ممارسة ما يسميه علم النفس بالتصعيد، تحويل هذه الآلام والعذابات إلى طاقة إبداعية قد تخدم ما يعتقد به من قريب أو بعيد»[2].

4–مواجهة الاستلاب الحضاري:

يمكن أن يحقق الأدب حد أدنى من التوحد الإسلامي في الإحساس والرؤية والتجربة، لأن الأمة التي يجمعها كتاب واحد، لا بد أن يكون لها أدب يعبر عن هذه الوحدة المصيرية، هذه الوحدة التي مزقتها الأهواء المذهبية والمحلية والقومية، ويدافع عن قضايا المسلمين الحضارية والإنسانية لأن «صوت الأديب يمكن أن يفعل الأفاعيل في هذا الليل العميق، إن انقداح شرارة واحدة في الظلمات قد تكشف عن الطريق، وإن كلمة تنطق بصدق من وجدان قائلها قد تعينهم على مواصلة الدرب صوب بصائرهم التي طمس عليها وأوصدت دونها الأبواب، إن وظيفة الأدب هاهنا كبيرة حقا، إنها الضوء والإشارة، والمعاونة والأمل، والقدرة على التجاوز والانطلاق، فضلا على أنها العامل الذي يشد ملايين المسلمين على همّ

(1)–عماد الدين خليل: في النقد الإسلامي المعاصر، ص27.

(2)–عماد الدين خليل: مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي، ص179.

واحد، وإحساس واحد ورؤية واحدة ومصير واحد. لقد بعثرتهم السياسات، فـأحرى أن توحدهم الكلمات»[1].

الأديب المسلم لا يحقق قيمة رسالية أو جمالية فقط، إنما يحقق قيمة تاريخية التي تكون لها أثرا وخلودا أكثر من عملية التاريخ لأن «المؤرخ ينظر من الخارج لكـي يلّـم شـتات الأحداث بعد أن وقعت واكتسبت ملامحها النهائية. ولكن الفنان يتمعن من الداخل، ويمـدّ رؤيته إلى الأعماق، إلى الوقائع والشخوص والأحداث وهي تتخلق وتتفاعل وتلتقي وتفترق وتتشابك لكي تتشكل بهذه الصيغة أو تلك. إن المؤرخ يدرس الواقعة ولكن الفنان يعيشها، من ثم فهو أقدر على حمل الطابع التأثيري لهذه التجربة، ونقله للأجيـال»[2]. ولأن الفعـل التاريخي يبدأ من خارج الحادثة بينما يأتيها الأدب من داخلها أي أنه يستطيع أن يحفظ لنـا حركية الحادثة التاريخية وحيوية شخوصها، وصياغتها في معاني وقيم جديدة معاصرة، مـن أجل نقد الواقع وتقويم المجتمع، وإحياؤها واستلهامها يعني المحافظة على ذات الأمة في معركة صراعها الحضاري، فالحدث التاريخي الذي وقع في الماضي، يجعله ينطبـق علـى الحاضـر ليستلهم منه المجتمع الأبعاد والنتائج.

لقد بهرت الحضارة الإسلامية البشرية، بقيمها السامية من خلال الالتقـاء بـالفطرة وحماية الإنسان من الشرك وربطه بخالقه عن طريق العبادة، وضبط سلوكه بالامتثال لنواهي الله ﷻ وأوامره، ودفعه إلى مرحلة التفكير والتأمل والتدبر والتفاعل مع الكـون، وإعطائـه القوة للموازنة بين مقاصد الروح ومطالب الجسد والربط بين عالم الغيب وعالم الشـهادة، والأديب المسلم يستطيع أن يعبر عن أسس هذه الحضارة القائمة على العبادة والعلم والعمل والسعي والابتلاء، ولأن الأدب بمفهومه الحضاري هو سمة من سمات الحضارة الإسلامية، ولم يعتبر في معظم أحواله «ترفا لغويا، ولم يكن لونا باهتا داخل إطار الصورة الحضارية لها، لم

---

(1)-المرجع نفسه، ص177.

(2)-المرجع نفسه، ص180.

يعش الشعر خارج الأحداث المتفاعلة والفاعلة في تحريك تلك الأمة. لقد أصبح سمة بارزة لها وعلاقة دالة على وجودها»[1]. والأدب في إطاره الحضاري «يركز أساسا على ما يمكن أن تسميه "قيم الحضارة الإسلامية"، ويتناول صور الحياة الجديدة المثالية التي ترعرعت في جنباتها قيم الحرية الحقيقية والشموخ العلمي الباهر، والسموق التشريعي المذهل، والتجربة الصادقة الحية، والانفتاح الواعي على تراث الإنسانية والعصور، والفهم الصحيح للعلائق التي تربط النموذج الإسلامي بغيره من التجمعات البشرية والأحداث»[2]. فضرورة الأدب الحضارية هي إدانة الوجود المعاصر من أجل البحث عن القيم الحضارية التي لا تطغى فيها القيم المادية على القيم الروحية، وتجمع بين الواقعية والعاطفية والجمالية «هذه الواقعية التي تستند إلى خلفية صامدة من القيم الثابتة التي تضيع معها الإنسان ولاتيه في زحمة الواقع وثقله وتمخضه وتحركه اللانهائي، ولا يتحلل في منعطفاته ووديانه... هذه العاطفية التي تحتضن في لحظة حب صامت عميق، كل الناس والأشياء... والجمالية التي تربط الأجزاء المبعثرة في النفس والآفاق، في وحدة متناسقة عبقرية الصنع والتآلف والتوافق، تضع كل مخلوق وكل شيء حيث أراد الله أن يكون، جمال رائع لصورة تنبثق في وجدان الإنسان عن رؤية واسعة المدى للكون والحياة والعالم»[3].

5-الإحساس الجمالي بروحانية الإبداع:

الأدب ضرورة فنية وروحية، فحاجة النفس إلى الفن كحاجة الجسم إلى الغذاء، إذ يقوم بتغذية العواطف وتنمية الوجدانات والسمو بالحياة في صورة من الجمال والطهر والنقاء وتنمية المسلم لا تند عن هذا الإطار فهو في حاجة إلى غذاء أدبي ملائم، وإلا صارت عرضة للأمراض الأدبية المتعددة التي تنتج حتما مع الإدمان على مطالعة الأدب العبثي والفن الساقط

(1)-محمد إقبال عروي: جمالية الأدب الإسلامي، الدار البيضاء للمغرب، 1986، ص22.

(2)-نجيب الكيلاني: آفاق الأدب الإسلامي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1407هـ، ص48.

(3)-عماد الدين خليل: في النقد الإسلامي المعاصر، ص69-70.

في أوحال المادية واللامبالاة[1].

ولهذا يجب أن يكون للأدب ذلك الشعور الروحي الذي يمنحه السمو والرفعة لأن «القصيدة تنأى عن الرفعة والمزية حين لا تنفذ إلى النواة المركزية للروح، حين تنقصها الروحانية بكل مالها من قدرة على تحريض الانفعالات، وإيقاظ الأعماق الغافية فينا، وحين تعجز عن أن تكشف لنا عن الغني الداخلي لأرواحنا نفسها، وحين لا تشف أمام بصائرنا عما هو سام ومهيب، وهذا يعني أن مضمون الفن يتماهى[2] مع مضمون الباطن ويحتويه بكامل ثرائه وحرارته، فالفن فينا لا يفعل شيئا سوى أنه يتيح لحدوسنا أفضل فرصة للتعرف عما هو مركز فينا سلفا. وحتى حين يعلمنا قيما جديدة، فإنه لا يفعل أكثر من تحريض الوجدان على استحضار هذه القيم من المستودع الميتافيزيقي للنفس، وهو المستودع الذي يضم التجربة البشرية برمتها»[3].

إذن فالقصيدة يجب أن تكون ذات نفس روحي أو ذات نفس ديني فكل نفس ديني يتأهل بشروطه لمقاومة اللاوجود والتوغل في المستقبل، والبعدان مشروطان متلازمان في القصيدة كما في الدين[4].

فالأدب الذي يهز مكامن الروح ويفتح منافذها، يصلها بنبع الحياة الذي لا ينضب، رغم حواجز المحسوس والمادي، لأن التأثير والإيحاء الحقيقيان في مدى بعث ألوان من النشوة الروحية التي تحرك الوجدان والفكر معا. إن المتعة الأدبية المجردة من ذلك لا تخلف وراءها إلا إحساسا سطحيا، أو أحلاما يقظة، أو رغبة غريزية، بينما المتعة الإيجابية هي التي تسمو بنا إلى ملكوت من الصفاء والانشراح، والطهر والسمو، حيث يتعانق العقل والروح والقلب

---

(1)-محمد إقبال عروي: جمالية الأدب الإسلامي، ص26.

(2)-يتماهى: من الماهية، أي يكون له دور أو وظيفة.

(3)-يوسف اليوسف: الشعر العربي المعاصر، منشورات اتحاد الكتب العرب، دمشق، 1980، ص46.

(4)-انظر: عزيز السيد جاسم: دراسات نقدية في الأدب الحديث، مطبعة الإدارة المحلية، طبع بمساعدة وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ط1، 1970، ص42.

والخيال.

والأدب الإسلامي بأفقه الروحي الواسع تعبير عن الروح المؤمنة والوجدان الشفاف والفكر المستنير والتاريخ الخالد والتجربة الحضارية الحية النابضة، والأمل المشرق لكل الإنسانية رغم اختلاف الأجناس والعقائد[1].

(1)-انظر: نجيب الكيلاني: آفاق الأدب الإسلامي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، (1407هـ-1987م)، ص121-126.